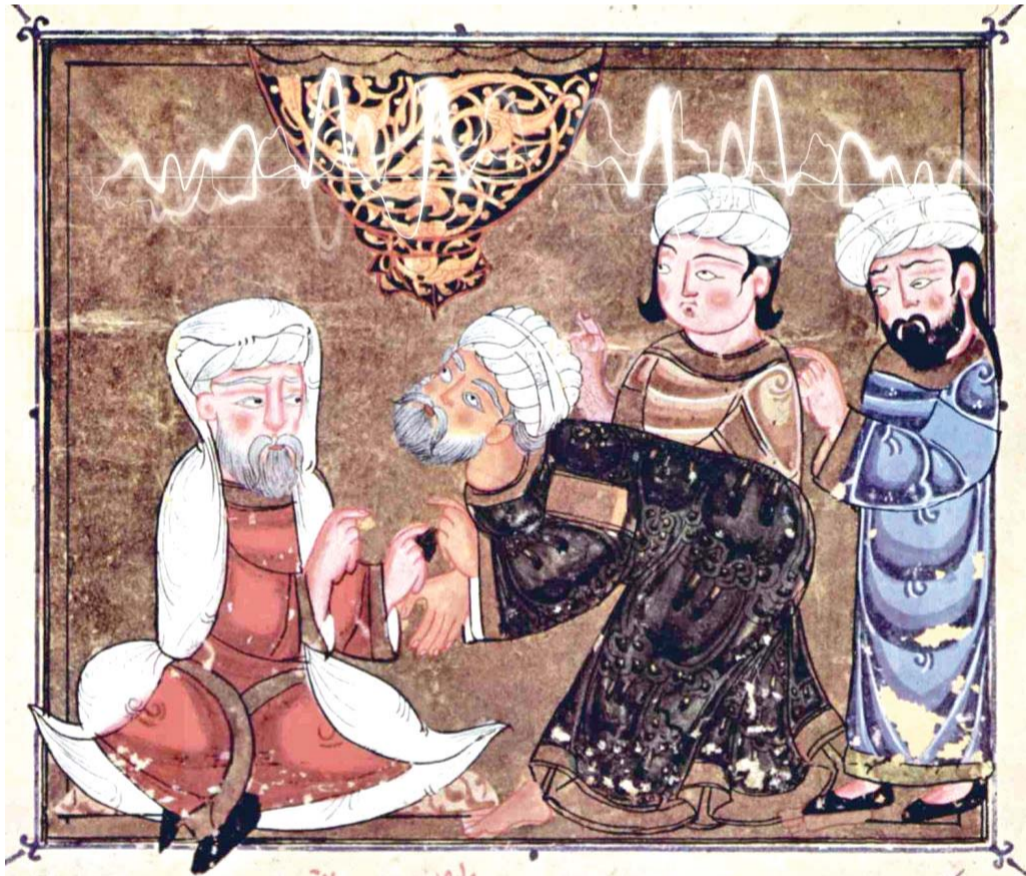




استدعاء القيم الصوفية



استلها من سير رموز الصوفية

حقيقية عن الصوفي المستدعي للنص الروائي. في أحيان أخرى، كان من اللافت أن الروائي يبدو مُتممًا لإحكام شخصيات صوفية لها جماهيريتها ومحبوها دون أن يكون هناك سياق منطقي ومُتنع لذلك، وأدى في بعض الأحيان إلى نقل نصوص كاملة لأشعار وخطب أقطاب الصوفية نقلًا حرفيًا، ما نجم عنه قدر ما من ازدواجية اللغة، كان هناك كاتبين للنص نفسه.

وبدا أن هناك توجهًا مصطنعًا من بعض أصحاب التجارب الروائية الحديثة لاستخدام التراث الصوفي بحثًا عن المبيعات لا أكثر، حتى أن كاتبا روائيا معروفًا بانتماؤه للتيار السلفي طرح قبل سنوات رواية له تقدم شخصًا صوفيًا متاملًا في الموت، تجاوب معها جمهور القراء، إلا أن مجاهرته بتصورات السلفية، وانغماسه في معارك شخصية تجاه المختلفين معه في ما بعد، أثبت لجمهوره أن طرحه السابق كان محل اصطناع وادعاء، والأمر برمته لا يعدو سيرا وراء تريند أدبي جديد.

تعبيرا عن الخنوع والطاعة والانقياد في كتابات الروائي سعد مكاي، خاصة التي تناولت قصص الممالك مثل رواية "الساثرون نياما" و"الكرباج".

انتشار الأعمال الصوفية يتكرر فقد سبق استدعاء التراث الصوفي في الأدب العربي الحديث في أوقات المحن والانكسار

من الواضح أن معظم النماذج الماضية تميزت بالرصانة وعدم المباشرة والبناء الفني المحكم، إلا أن الارتداد إلى الصوفية مؤخرا انتابته بعض مواطن الخلل الفني، ربما تحت وطأة التعجل أو بكارة التجربة، ففي بعض الأحيان طغت فكرة البحث العلمي التاريخي على المستوى الفني، وكان الروائي حريص على عدم التفريط في كل ما قام بجمعه من مقولات وحكايات

في أقوال الشيخ الصوفي علي جندي الذي يلجا له اللص كلما ضاقت أمامه طرق التوبة.

وربما يبدو الاستدعاء مشابهها عند جمال الغيطاني في كتاب "التجليات"، حيث يقدم نصًا صوفيًا تتجاوز فيه دلالات الألفاظ معانيها المباشرة. كذلك فقد استدعى الروائي عبد الحكيم قاسم فكرة الدين الشعبي كبديل لإرهاصات المد الأصولي في روايته "أيام الإنسان السبعة"، من خلال مشهد الحضرة والاهتمام العفوي لدى البسطاء بالحضرة والذكر والمولد.

وهناك توظيف مغاير لدى الروائي صبري موسى في روايته "فساد الأمكنة" إذ تتجاوز الصوفية فكرة الأديان في حد ذاتها، إذ نجد أن بطل الرواية وهو نيقولا شخص لا ديني، لكنه عفوي وفطري ومؤمن بالطبيعة والخير ويتردد في كل المنع، لأن الطبيعة أهله لذلك وغرست فيه الصحراء حب التامل والرضا التام. وربما نلج جانبًا سلبيًا للصوفية في بعض الكتابات الماضية، باعتبارها

ظهور النزعة الصوفية في الإبداع ينبيء بأزمات كبرى

قيم التصوف وسير أقطابه تحرك المياه الراكدة في بحر الرواية الفسيح

استيعابه بعيدا عن الواقع المعاش، الذي يُعاني فيه الناس من تنامي واضح للتدين المظهري، ونمو لفت للتعصب الديني، وشيوع أكبر لخطاب التكفير والتشكيك والتخوين، وبث الكراهية تجاه كل آخر.

مقاومة سلبية

كانت الطموحات والاماني في عنوانها عندما كان الشباب مُحْتَشِدِينَ في ميدان التحرير بوسط القاهرة قبل عشر سنوات، يحملون بمجتمع مُتحرر، وتسوده قيم التسامح والعدالة، وينعم بالاستقرار والتعايش بين الجميع، إلا أن انقلاب المشهد الراقي إلى صراع دام، وتبدد الحلم واختطاف الانتفاضة من قبل التيار الديني صدم المجتمع ككل. انزاحت شعارات الانتفاضة، لتكشف عورة مجتمع ينخر فيه سوس التعصب وضيق الأفق والتنمر تجاه كل مختلف، وانتهى كل شيء كان يبدو جميلًا إلى أوضاع أكثر سوءًا مما انتفض الناس عليها، ما جعل التصوف بمكنونه وعمقه يمكن اعتباره حلا عمليًا.

الصوفية باعتبارها إحدى صور التدين الشعبي، من أيسر الطرق للرد على الاستقطاب الديني، والمذهبي، والأيدولوجي الذي تفشى بصورة لا مثيل لها بفضل التطور التكنولوجي وما صاحبه من تمدد لشبكات التواصل الاجتماعي، وبفضل تاجيح الصراعات في بعض المجتمعات العربية.

الصوفية تسامح، رضاء، نقاء، قبول، تعايش، رقي، هي في حالة لا أكثر بما يحدث وترفع عن المكاسب المادية والغفوة، إنها تأمل في ما وراء الكون، مقاومة سلبية تليق بمجتمعات منهكة بفعل انتفاضات تُفضي دوماً إلى خسائر فادحة.

لم يكن الحل جديداً، فقد سبق استدعاء التراث الصوفي في الأدب العربي الحديث في أوقات المحن وأزمة الانكسار.

ولم يكن غريباً أن يضيق الشاعر الراحل صلاح عبدالصبور بطغيان الزمن وماديته وصعود الانتهازيين وتسيّد الظلم حوله ليُقدم لنا أطروحات عدة للمقاومة الصوفية التي تجاهر بالتصالح الذاتي والترفع على كل ما يراه الناس مكاسب.

يبدو ذلك جليلاً في مسرحيته الشهيرة "مأساة العلاج"، لكن المعنى نفسه يبدو أكثر وضوحاً في قصيدة "يوميات بشر الحافسي" التي يقول فيها: فإذا ركبت كلاماً فوق كلام/ من بينهما استنزلت كلام/ لرأيت الدنيا مولوداً بشعاً/ وتمتعت الموت/ أرجو.. الصمت. الصمت.

وهنا فإن الصمت يعني السكون التام في مواجهة القبح لأنه كما يقول: وذلك أن ما تلقاه لا نبيغه/ وما نبيغه لا نلقاه.

يتخج الحس الصوفي في أعلى تجلياته في اختيار بشر الحافسي المقاومة عن طريق اللامقاومة. يقول عبدالصبور متسائلاً: وهل يرضيك أن ادعوك يا ضيفي لماذنتي/ فلا تلقى سوى جيفة؟ تعالني الله، أنت وهبتنا هذا العذاب وهذه الآلام/ لأنك حينما أبصرتنا لم نحل في عينك/ تعالني الله، هذا الكون موبوء، ولا بُدَّ/ ولو ينصفنا الرحمن عَجَلْ نحونا بالموت/ تعالني الله، هذا الكون لا يصلحه شيء.

تريند أدبي جديد

في الرواية المصرية بمفهومها الحديث، كان استدعاء الحس الصوفي مُتكرراً منذ البدايات، وعند نجيب محفوظ، وكما يذكر الدكتور مصطفى عبدالغني في كتابه "الثورة والصوفية عند نجيب محفوظ"، كان استدعاء التراث الصوفي تعبيرا عن الحكمة أكثر منه هروباً من الظلم ومادية الحياة. وفي رواية "اللس والكلاب" تطل الحكمة باعق مضامينها

لا تكاد تمر فترة حتى نسمع بعمل روائي أو مسرحي أو نص أدبي أو درامي يتناول قضية أو قيمة أو شخصية صوفية، حيث باتت الأجواء الصوفية نقطة جذب للقراء والمتابعين والجمهور، وهو ما جعل "الأعمال الصوفية" تتكاثر بشكل كبير، غثا وسمينا، جيدا وهزليا، كلها أعمال تبحث عن الانتشار والشهرة والرواج، وأغلبها لا يتجاوز مجرد البحث أو إصاق معلومات مقتطعة وأسماء، لكن الإقبال على هذه الأعمال يزيد رغم ذلك. فما السبب وراء انتشار الأعمال الصوفية الكبير اليوم؟

التصوف حلا مُقنعا لكافة ما يعانیه من مشكلات وما يواجهه من انكسارات. بالفعل صدرت روايات عربية عديدة مُتمتجة بتصورات ورؤى صوفية، خاصة في بلد مثل مصر، عرف بقدم تجربة الصوفية فيه وتميز بوجود جمهور كبير لأقطاب الصوفية، ربما كان أبرز تلك الروايات، رواية "شجرة العابد" للكاتب عمار علي حسن، ورواية "عشق" للروائي أحمد عبدالمجيد.

ويمكن القول إن فون رواية "موت صغير" للروائي السعودي محمد حسن علوان، وتناولت سيرة القبط الصوفي الشهير مُحبي الدين بن عربي بجائزة البوكر العربية للرواية عام 2017 مثل دافعا كبيرا لكثير من الكتاب في ما بعد للخوض بشكل أعمق في الجانب الصوفي. وتجاوز مجرد استدعاء القيم الصوفية إلى استلها من سير وتراث كبار المتصوفة أنفسهم، وإعادة سردها مثل ما حدث مع القبط الصوفي جلال الدين الرومي، في رواية "حارس العشق الإلهي" للروائي أدهم العبودي، أو ابن عطاءالله السكندري في رواية "رواق البغدادية" للروائي أسامة السعيد.

توالى تجارب الإبداع المتداخل مع الصوفية وتعددت، وصار من المعتاد أن تعلن الكثير من دور النشر عن روايات جديدة تحت وصف "صوفية" للترويج لها، وجذب اهتمام الجمهور المتعلق بالصوفية كشخص أو فكر يُفسر ذلك الإقبال وتحليل تصاعده لا يُمكن

بتباين الاعتماد على هذا المحور من عمل آخر، ففي بعض الأحيان يتم استدعاء بعض قيم التصوف نفسها وإعادة بثها عبر صفحات الرواية من خلال تفاعلات الشخص مع وغالبا ما تضم تلك القيم: الإيثار، القناعة، الرضا، والحكمة.

في أحيان أخرى يستدعي العمل الأدبي سيرة واحد من أقطاب التصوف المعروفين ويتم تقديمها بشكل روائي يمزج بين الواقع والخيال. ويستعين البعض بالتراث الصوفي اللغوي المبهج في لفظه، والعميق في مضمونه، داخل النص لتحسين مستوى اللغة.

كانت رواية الكاتبة التركية إليف شافاق الأشهر التي تحمل عنوان "قواعد العشق الأربعون" وصدرت عام 2010، وقدمت جانباً من سيرة شمس الدين التبريزي، هي البداية المعلنه لموجة التصوف الجديدة الرأحفة إلى عالم الأدب في محيطنا الشرقي، عندما باعت ما يقارب المليون نسخة، وترجمت إلى ثلاثين لغة مختلفة.

لكن الظاهرة لم تلبث أن اقنعت مبدعين كثرًا من جيلي الشباب والوسط بخوض تجارب شبيهة إرضاء لذوق عام يجد في

مصطفى عبيد
كاتب مصري

خطفتنا المواجه، وشردتنا غربة الانكسارات وتبديد الأحلام والطموحات. جيلي أقل تعاسة من الجيل التالي. والتالي أقل من الذي يليه، وهكذا، فكلما امتد الزمن اتسع الشجن وكبرت مساحة الغربة الداخلية للإنسان فبات أكثر حسرة وحيرة والتفاتا للماضي. في محيطنا العربي يُعرف بدول الربيع العربي بشكل خاص، وفي بلدان ما أصبحت أكثر خصوصية، أصبحت الغربة الإنسانية أقسى، وصار الإحساس بالتقهقر والانسحاق أشد، ما جعل الهروب أو المقاومة يتخذ ألوانا عدة، ربما كان أحدها هو التصالح الذاتي والتقبل والرضا والصبر. وكلها من قيم الصوفية الأصيلة. وهذا قد يفسر نزعة الصوفية الرأحفة على كثير من مجالات الحياة، لاسيما في مجال الإبداع، وهي نزعة تلقى إقبالا متزايدا من المثقفين باختلاف فئاتهم.

إرضاء لذوق عام

ليس أدل على هذا الإقبال على نزعة الصوفية من أن نجد روايات لأبناء شبان أو من جيل الوسط تحقق أكثر من عشر طبعات في وقت محدود لا يتجاوز عاما واحدا، لاعتقادها على محور حاكم هو التصوف.

بتباين الاعتماد على هذا المحور من عمل آخر، ففي بعض الأحيان يتم استدعاء بعض قيم التصوف نفسها وإعادة بثها عبر صفحات الرواية من خلال تفاعلات الشخص مع وغالبا ما تضم تلك القيم: الإيثار، القناعة، الرضا، والحكمة.

في أحيان أخرى يستدعي العمل الأدبي سيرة واحد من أقطاب التصوف المعروفين ويتم تقديمها بشكل روائي يمزج بين الواقع والخيال. ويستعين البعض بالتراث الصوفي اللغوي المبهج في لفظه، والعميق في مضمونه، داخل النص لتحسين مستوى اللغة.

كانت رواية الكاتبة التركية إليف شافاق الأشهر التي تحمل عنوان "قواعد العشق الأربعون" وصدرت عام 2010، وقدمت جانباً من سيرة شمس الدين التبريزي، هي البداية المعلنه لموجة التصوف الجديدة الرأحفة إلى عالم الأدب في محيطنا الشرقي، عندما باعت ما يقارب المليون نسخة، وترجمت إلى ثلاثين لغة مختلفة.

لكن الظاهرة لم تلبث أن اقنعت مبدعين كثرًا من جيلي الشباب والوسط بخوض تجارب شبيهة إرضاء لذوق عام يجد في



الصوفية لها رواج باعتبارها إحدى صور التدين الشعبي، من أيسر الطرق للرد على الاستقطاب الديني والمذهبي والأيدولوجي

